



مولى

حنان

بقلم السيدة صوفي عبدالله

وتدفقت عذوبة الذكريات فانتشلتها من حاضرها عبر ستة عشر عاما - وعلى شاطئ آخر ، شاطئ شعبي ، كانت تجلس وبجانبيها مدحت وأمامها طفلتهما حنان في سلة كبيرة مما تحمل فيها الاطفال الصغار ... كانت في شهرها الثالث ، جميلة ، يانعة ، كالزهرة المفتحة ... ولكن شيئا فيها لم يكن طبيعيا : صمتها المطبق وعدم تمييزها لمن حولها من الاشخاص والاشياء ! .. لم تكن تعرف أمها . وهي أول من يتعرف عليه الطفل ! .. ولا أباه ! .. كل الاشخاص حولها سواء ! ..

كانت حنان طفلتها الأولى بعد زواج دام خمس سنوات . زواج أقل ما يوصف به أنه حلم كل عذراء . فمدحت زوج توافرت فيه كل مميزات فارس الاحلام . رقيق أنيسق عطوف حبيب الى النفس مريح للأعصاب . وهي تعبده من دون الله . وترى فيه زخر أيامها وجنبه حياتها .. وحنان . طفلتها المعبودة . لكم هفت نفسها الى الاطفال مدى الخمس سنوات . ولكن مدحت لم يكن يريد رغم حبه الشديد لهم ... لم يكن يريد أن يكبل نفسه بطفل وهو يعبد حياة

انحسر الموج عن الشاطئ ، واندفعت الطفلة الص صغيرة الجميلة بكل حيوية الطفولة البريئة ، اندفعت تجرى وهي تتعثر في خطاها تسبقها صرخاتها المرحية ويدها ممدودتان كأنما تستعطف الموج أن يعود وفزعت الام الشابة فأسرعت تصبح خلفها قبل أن يدركها المد مرة ثانية :

- حنان ... ارجعي ..

ورفعت سيده نصف عينيها عن شغل التطريز الذي في يدها ، وكانت تجلس أمام كابيتها على بعد خطوات قليلة . رفعت عينيها تنطلع الى الام الشابة والطفلة السعيدة المرحية . وانطلقت من صدرها أنه جريحة وتمتعت تحدث نفسها :

- حنان ... ياله من اسم !

وغامت عينها خلف قطرات من الدموع ترقرت ثم انحدرت فوق خديها الفائرين ، فرفعت يدها تتحسس وجهها وتزيح خصلة من شعرها تهدلت على جبينها ثم عادت تحدث نفسها من خلال دموعها .

- ترى كيف أصبحت الآن ابنتي

أنا ... حنان !؟

الانطلاق . حياة التحرر من كل الالتزامات
التي تعسوقه عن الاستمتاع بمباحج
الحرية . والاطفال قيد ، ولو كانوا قيديا
من حرير ، ولكنه لم يستطع الصمود
أمام الحاحها . وجاءت حنان .

وحمل الهواء اليها صوت حنان .
الطفلة المرحة السعيدة وأما تلعب معها
بالكرة على الرمال ، ثم تجرى خلفها
فتدركها والطفلة تقفز وضحكاتها تملأ
الجو . . .

لكم هفا قلبها الى هذا الدور من سنى
الطفولة العذب لابنتها حنان ، لكنها لم
تدركه . . . لم تدركه لأن حنان ابنتها
لم تكن كبقية الاطفال ! كانت تاكل
وتنمو وتزداد جمالا ويكتسى وجهها
بحمرة العافية . ومع ذلك لا تتكلم ولا
تتحرك ، ولا تنادىها بأعذب لفظ حلمت
به في حياتها . لم تقل لها ماما لأن
قدرة التمييز كانت تنقصها ، ولم تلفظ
كلمة بابا لأن ادراكها كان قاصرا تماما
. . . بل كان معدوما ! .

وأصبحت حنان الغصة التي يشرق
بها حلقاهما ! . . أصبحت نكبة حياتهما
من حيث أرادها فرحة وحدتهما . . .
لم ينفع معها طب أو دواء . وأجمع
الاطباء أنها ستعيش وتكبر ولكن عقلها
سيظل متخلفا ! . .

ووضعت يديها على عينيها تحجب
الذكرى المرعبة وأحسست نفسها تنسلخ
عن حاضرها ، وتمتمت بتوسل :
- مدحت . أريد طفلا آخر . . . أريد
طفلا يشعرنى بأموئى . . .

وسمعت صوته أقرب الى البكاء :
- كيف ! ؟ كيف يمكن أن تخطئ
ببالك هذه الرغبة القاسية ؟ .

وأجابته فى ضراعة :

- ان حنان لا تعرفنى ، وأنا أريد
طفلا يعرفنى يا مدحت . وينادىنى
ويتجاوب معى . . .

وتحشرج صوته بدموع يحاول
جهده أن يحتجزها :

- ان حنان محتاجة لكل حبنا
ورعايتنا . . . ان حنان عاجزة وأى طفل
آخر سيسلبها حبنا وحناننا . . .
- صاحت فى لهفة :

- لا تقل هذا . ستكون حنان دائما
فى المكان الأول من نفوسنا ، ومهما كان
طفلنا الثانى فلن يستطيع أن يحرمها
من حناننا .

- هذه محض تخيلات . . . لقد لمست
بنفسى كيف يحرم مثلها من الرعاية اذا
وفد على الأسرة طفل جديد . . .
وقالت فى عتاب :

- لسنا نحن يامدحت ممن يتصرفون
هذا التصرف الجائر . .

- انت واهمة يارجاء . وكلامك محض
تخيلات . . ولن أسمع لك بالحوض فى
هذا الموضوع بعد الآن .

وجشت على ركبتيها وراحت تستعطفه
بدموعها :

- أرجوك يامدحت ، أتوسل اليك ،
لا تحرمنى من اللذة الوحيدة فى الحياة
. . . لا تحرمنى من الامومة . . .

وصرخ فيها بياس :

- ان كلامك كخنجر يطعننى فى
صدرى . . اليست حنان ابنتك ! ؟ كيف
تقولين اننى حرمتك لذة الامومة ! ؟
أنتكرين عليها بنوتك ! ؟ .

- انها ابنتي يامدحت ولكن أمومتى معطلة بالنسبة لها ... ان شسعر التجاوب بينى وبينها معدوم ! .. انها لا تعرفنى !!

- وهل هذا ذنبها ؟ ! اما يكفيك ما بها حتى تريدن حرمانها من عطفك لتغديه على طفل آخر فيكبر معها احساسها بالاضطهاد من القدر ومنك أيضا ؟ !

ودفن رأسه بين يديه مستندا على ركبتيه فى ياس مر ، وخرج صوته كالأنين :

- رجاء . اعقلى ، والا كانت نتيجة تصرفاتك وبالا علينا .
وقالت فى لجاجة :

- ولنفرض أنها استمرت على هذا الحال ... الن تفكر ...
ولم يدعها تتم بل صاح وقد تملكه غضب شديد :

- نعم لن أفكر فى طفل آخر قبل أن أراها قادرة على خدمة نفسها وفى غنى عن كل انسان .
وفى صوت هامس قالت :
- هل هذا قرارك الأخير ؟
وأجابها بحزم :

- نعم . هذا قرارى الأخير ولن أراجع عنه مهما حدث ..

وأحست بجمر نار يحرق صدرها وزفرت بحرقه : ترى كيف أصبحت يا حنان ؟ وشدهتها الذكرى وهى ترى الشهور تمر وحنان تزيد فى فجيعتها ، نعم :

فجيعتها هى ، فان كان ياسه من عدم تقدمها للشفاء وحزنه على مصيرها يعد فجيعة ، فان ألم حرمانها من الامومة وعقارب الغيرة التى تلدغ أحشائها كلما

سمعت طفلا ينادى على أمه .. هذه الاحاسيس كانت تدنو بعقلها شيئا فشيئا نحو النهاية ! .

وبدا عامها الثالث وهى طريحة على ظهرها حتى الحركة لا تستطيعها ، شئ واحد هو الذى تقدمت فيه صوت كالصراخ تفتح به فمها اذا تلكأوا فى اطعامها ثم تدبر نظرها فيما حولها وترفع يدها وتضعها فى فمها وتحدث غرغرة .

ووصلت الأزمة برجاء الى منتهاها ، فاختلت بمدحت ذات مساء وكانت خلواتهما نادرة ، وسألته وهى تحاول أن تدخل على نبرات صوتها شيئا من الليونة والانكسار .

- علام عولت يامدحت ؟
ولم يجبها بل رفع عينيه عن الجريدة متسائلا بعينيه :

وأحست بشجاعته تخونها تحت وقع نظراته . فتشأغلت بوضع صحاف الطعام أمامه على المنضدة الصغيرة .
وخرج صوتها مرتجفا :
- ألم تصل الى حل ؟
وأجابها فى دهشة :
- حل ؟ لمه ؟

- لقد تقدمت الحال بحنان وأظنها أحسن كثيرا الآن .

وانتظرت أن يرد عليها - بأى كلام - ولكنه تشبث بالصمت . فأردفت بسرعة وقد أحست بشجاعته على وشك أن تخونها :

- ألم يؤن الألوان بعد ؟
فأجابها ببرود :
- أوان ماذا ؟

وغاظها بروده وأمدتها ببعض القوة وارتفع صوتها قليلا وهى تقول :

أوان انجاب طفل .

وبنفس البرود القاتل قال :

— كلا .

وأحست لبروده مخالب تنزع قلبها
من بين ضلوعها فانفجرت فى يأس :

— اذن طلقنى .

وكانما نزلت على نافوخه بقضيب
من حديد ، فاتسعت عيناه وبرزت
ونفرت عروق رأسه ، وجف حلقه ،
وخرج من بين شفثيه شبه فحيح :

— أطلقك ؟

— نعم لاحقق أمومتى المعطلة من
زوج آخر .

وألجمت صراحتها لسانه فراح ينظر
إليها غير مصدق واستدركت هى :

— مادمت تبخل على بهذه الرغبة التى
تقتلنى ببطء فلن أعيش معك .. ان
حبك وحنانك كله قد تحولوا الى ابنتك
حنان وليس لى مكان فى نفسك .. لقد
كرهتنى يامدحت .. كرهتنى لدرجة
أنك تظن على ببعض السعادة التى
تملكها أنت ولن تكلفك شهينا ! ..
قلت لك ألف مرة ان سعادتى فى الامومة
وقد حرمتنى منها . فلا أقل من أن أبحث
عنها مع آخر ! .

وكانما كلماتها هى القشة التى
طفحت بكيل همومه فصرخ وقد انفجرت
ينابيع حقدہ جميعا :

— أيتها المجردة من كل عاطفة ،
يا جاحدة ، يا قاسية اليك عنى . اذهبنى
.. تزوجسى .. انجبنى .. أما أنا
فسأعيش لابنتى . وأسعدى أنت

بحياتك فليس لك بعد الآن موضع فى
بيتى ...

وسقطت يداها من فوق عينيها اللتان
غاصتا فى البحر أمامها ، ولم تبك ..
لم تسقط دمعاً واحدة من عينيها .
كانت أحشاؤها تبكى ...

نعم لقد تزوجت ولكن الله حرهما من
الانجاب .

وأحست بحركة عجلات تمر بالقرب
منها فوق الارض المرصوفة فالتفتت
بطرف ذابل فاذا بعينيها تصطدمان
بشابة جميلة يانعة ، ممتلئة الجسم ،
فارعة الطول ، تجلس فوق كرسى
ذى عجلات مستندة الرأس على وسادة
مثبتة على ظهر الكرسى ، وعيناها
لا تطرفان ! ويداه راقدتان فى حجرها
فى استسلام ومن خلفها رجل طويل
نحيف أسمر اللون أبيض الشعر فى
لون الثلج يدفع الكرسى ببطء بينمسا
تسبح عيناه فى القضاة اللانهاى غير
عابىء بما حوله من عجيج الحياة ! ...

والجم فاما .. لم تصدق نظرها ..
أصابها ذهول .. ولم تفق الا والعربة
قد اختفت عن ناظرها ، وصاحت فى
يأس :

— حنان ... ابنتى .

وسمعتها حنان هى الاخرى .. الجميلة
الصغيرة ، والتفتت إليها وقذفتها بالكرة
وهى تصيح فى نشوة ثم جرت رافعة
يديها نحو الموج المنحسر تحاول أن
تستوقفه فأسرعت إليها بالكرة وقد
غشت عينيها الدموع ولكن الصغيرة
حدقت فى وجهها المتقلص ثم جرت منها
مذعورة وارتمت فى حضن أمها ...